القارىء، التساؤل التالي: لِمَ كان البحث عن الفلسطينيين في ملفات الحركة العربية الواحدة، لا سيما وان البحث عن الدور السوري أو اللبناني، أو خلافه في مطلع القرن العشرين، هو أمر ملتبس الى حد ما؛ يعود ذلك لوحدة الحركة من جهة، وعدم وضوح الفواصل والتخوم الاقليمية من جهة أخرى؟ حول هذا التساؤل، أجابت الباحثة، «ان الشعب الفلسطيني جابه من أخطار العدوان على هويته القومية، ومن إنكار وجودها أصلاً، ما لم يجابهه شعب عربي آخر. فالانتداب البريطاني لفلسطين كان مختلفاً عنه في الاردن أو العراق؛ فهو جاء فلسطين مع الوعد بالوطن القومي لليهود، وهذا الوعد بحاجة الى بلد بلا شعب، فكانت بداية الصراع إنكار الهوية القومية للشعب الفلسطيني، وإنكار وجود فلسطين في الحركة العربية. وبريطانيا التي تنكّرت لعهودها بأن تكون فلسطين الارض جزءاً من الدولة العربية، ما كان في استطاعتها الّا ان تتنكر للشعب الذي علّق أمانيه القومية على الدولة العربية المقبلة وناضل من أجلها» (ص ٢٢٠).

أمّا القسم الرابع، فتألّف من أربعة فصول، تعرّض الاول منها الى التجمّعات اليهودية في أوروبا، وذلك من خلال درس النظرية القومية والصهيونية، وأوروبا والصهيونية ومسائل الغيتو والاضطهاد، ونظريات حل المسألة اليهودية، عبر التحرر أو الاندماج، ومسألة معاداة السامية. ودرس التناقضات الصهيونية والعوامل المهّدة لظهورها، وكذلك العوامل الجذرية الاخرى لبنائها، ومنها الجذر العاطفي والديني والاستعماري. وتعرّض الفصل الثاني من القسم الرابع، الى العوامل الدافعة الى ظهور الصهيونية، وكان أبرزها، «معاداة السامية»، وفشل الاندماج، والهجرة اليهودية من اوروبا. أمّا الفصل الثالث، فتناول روّاد الحركة الصهيونية، واتجاهاتها الرئيسة، وهي الدينية والثقافية ـ الروحية، وأحباء صهيون، والصهيونية السياسية.

وفي الفصل الرابع، تعرّض الكتاب الى انطلاقة الصهيونية منذ ظهور فكرة «الدولة اليهودية» عند تيودور هرتسل، وطرحها في مؤتمر بازل، ومن ثم طرح المشاريع المتعددة، ومنها مشروع الارجنتين ومشروع فلسطين ومشروع قبرص وسيناء والعريش ومشروع شرق افريقيا. كما درس زعامة هرتسل للحركة الصهيونية، والتيارات والاحزاب السياسية الصهيونية، وأبرزها التيار الديمقراطي العلماني والتيار الديني والتيار الاشتراكي.

واستخلصت الباحثة، من خلال استعراضها المكثّف هذا، ثلاث حقائق رئيسة، وهي: «ان الحركة الصهيونية كانت دخيلة على فلسطين، فهي حركة نشأت وترعرعت في أوروبا، وهي ما زالت، حتى يومنا هذا، خارج فلسطين، وان استبدلت مركز ثقلها الاوروبي بالاميركي لأسباب ديمغرافية (يهودية) وأخرى سياسية واقتصادية؛ وثانياً، ان الحركة الصهيونية ما كان ممكن لها أن تستمر لولا تحالفها الاستراتيجي مع القوى الاستعمارية؛ وثالثاً، ان الحركة الصهيونية، حركة استعمارية استيطانية عنصرية لا يصح مقارنتها مع أية حركة استعمارية أخرى» (ص ٤٨٧).

أمّا القسم الخامس والاخير، فتألف من أربعة فصول، أيضاً، تناول الاول منها تطوّر أوضاع اليهود في فلسطين، منذ «اليشوف القديم» والقوانين العثمانية، انتقالاً للهجرة الاولى ١٨٨٢ ـ ١٩٠٤، والثانية ١٩٠٥ ـ ١٩١٤ وصولاً لاحصاءات «اليشوف» القديم والجديد والمستعمرات. وفي الفصل الثاني درست المؤلفة الاوضاع العامة للسكان العرب، من زواياها الادارية والسياسية والاجتماعية والثقافية، وكذلك التطوّر الزراعي والصناعي والتجاري. وتناول الفصل الثالث، المقاومة العربية للنشاط الصهيوني منذ ارهاصات الوعي العربي على الخطر الصهيوني وبروز الاقلام القومية العربية، وتطوّر الموقف العثماني، ودور النواب العرب في مواجهة الصهيونية، وانعقاد المؤتمر العربي الاول ونشوء الاحزاب والجمعيات. وخصّصت الكاتبة الفصل الرابع الى دراسة وعد بلفور من أبعاده المختلفة: التوقيت، القانونية، الاهداف والدوافع الحقيقية، وردّات الفعل الدولية التي تلته.

وفي الخاتمة، استخلصت الباحثة، بأن هنالك عاملين، كان لهما الاثر الاكبر في تاريخ فلسطين الحضاري والسياسي منذ فجر التاريخ، وهما: العامل الجغرافي «وهو موقع فلسطين، همزة الوصل بين القارات الثلاث، وبين الحضارات المتعددة؛ اذ أضحت، بحكم موقعها هذا، ملتقى للطرق التجارية، والقوافل، وممراً للجيوش المتقاتلة». أمّا العامل الثاني، فهو ديني؛ اذ كانت فلسطين منبت الديانات السماوية الثلاث. «ومن أجل هذين العاملين: عامل الجغرافيا ـ السياسية (الجيو بولتيك) وعامل الديانة ـ السياسية (الثيو بولتيك) كان تاريخ فلسطين